

بايلك الشرق دراسة طبيعية وزراعية من خلال الرحالين بايسونيل و دي فونتين و الدكتور توماس شو



أ. كشرود حسان
المدرسة العليا للأساتذة آسيا جبار
جامعة قسنطينة 3

ملخص المقال

أعتبر بايلك الشرق و عاصمته قسنطينة في العهد العثماني من البايلكات الأكثر تباينا في تضاريسه و في تنوع مصادره الطبيعية النباتية و الإقتصادية و في تفاعل بنيتها السكانية التي اعتبرت امتدادا لمجال بايلك التيطري جعلت الكاتب الفرنسي ليون جليبرت Léon Galibert يقول عنه: « بايلك قسنطينة يؤلف مملكة حقيقية، تفوق في أهميتها كل من بايلك التيطري، بايلك يتميز بعدد سكانه المرتفع و بمساحته الشاسعة، و ثرواته الكثيرة و تربته العميقة، و مناخه المعتدل في بعض الجهات و غيرها من الخصائص الإيجابية التي تتوفر عليها». (1)

تلك المظاهر منحته المكانة المتميزة عن الأقاليم المجاورة له ما أدى إلى اكتسابه جاذبية أجهرت كل قاصد و زائر له من المؤرخين و الرحالة و العلماء الأوربيين المولعين بالدراسات الجغرافية و النباتية للمنطقة و إرثها الإقتصادي لأغراض معينة و مختلفة و أهداف محددة لتحقيقها ، فكانت كتاباتهم لتلك المنطقة ثرية بخصوصياتها و مهمة في قيمتها المصدرة بغض النظر عن موضوعية المعلومات المسجلة في تلك المصادر أو ذاتيتها .

ملخص المقال باللغة الفرنسية

Cet article traite la constitution géognostique du beylik de Constantine période ottoman et la richesse botanique, fertile et agricole de son territoire qui complète un patrimoine naturel, culturel et socio-économique avec le beylik de titteri , et d'après Léon Galibert « il était un vrai royaume». Ces facteurs merveilleux ont attiré l'attention des voyageurs naturalistes et explorateurs scientifiques européens pendant le 18ème siècle , surtout PEYSSONNEL et DESFONTAINES

et le Docteur Thomas SHAW qui étaient étonnés par la valeur du beylik de l'est et son héritage économique, et ont exprimé les divers phénomènes des plantes et végétations qui structurent l'activité rural et urbaine , dans des ouvrages Historiques et scientifiques qui constituent des sources détaillées de la régence d'Alger et ses provinces.

مقدمة

ممتدة من عام 1720م إلى 1805م ، و هي الفترة التي شهدت تغيرات في حكم الدايات وكانت قاعدة لمرحلة القوة و الإستقرار خلال حكم الدايات محمد بن عثمان باشا⁽³⁾ و التي كان لها الأثر البالغ في إثراء التأليف العلمي الطبيعي و التاريخي الإجتماعي الإقتصادي الذي أسهب فيه بعض الرحالة الأوروبيين المختلفين في التكوين و التفكير والوافدين على البايلك لمعرفة مقوماته الطبيعية وإمكاناته الزراعية ، ما فتح المجال لدراسات قيمة و متجددة بعيدة عن التقليد و نقل المضمون و التصور الإنحطاطي و العداء السياسي .

أولاً : خصوصيات حدود بايلك الشرق (4)

يقع بايلك الشرق في القسم الأوسط من شمال إفريقيا⁽⁵⁾، حيث يمتد على شكل مستطيل غير منتظم و ينحصر بين خطي طول 21° - 30° و 8° - 35° شرق خط غرينتش و بين دائرتي عرض 34° - 37° شمال خط الاستواء.

و عن الحدود الجغرافية لبايلك الشرق أورد العنصري: « أن الرقعة تمتد من البحر شمالاً إلى ما وراء بسكرة و واد سوف، في حوض ريغ ، و ايغرغر جنوباً ، و من الحدود التونسية شرقاً إلى ما وراء إقليم ونوغة و برج حمزة (البويرة) ،

لقد كان بايلك الشرق مقصدا للعديد من الرحالة الأوروبيين مزودين بأفكار و أحكام جاهزة مسبقة بهدف البحث و الاستكشاف، في إطار الوفود و السفارات و البعثات التي كانت تنظمها الجمعيات و الأكاديميات العلمية التابعة لأنظمتهم الملكية و أخص بذكر مملكة فرنسا و بريطانيا خلال القرن الثامن عشر الميلادي التي كانت تقوم بتنظيم و تمويل رحلات العلماء و الأطباء و الدارسين، و تتكفل بطباعة أعمالهم و نشرها ضمن نشاطها العلمي ، مستغلين في ذلك تقارب العلاقات بين دولهم و نظام دايات الأيالة⁽²⁾ و من بين تلك الرحلات التي اجتمعت فيهم المواصفات العلمية خلال زيارتهم لأيالة الجزائر أو ما أصطلح بالبلاد البربرية رحلة العالمين الفرنسيين «بايسونيل و دي فونتين» Peyssonnel et Desfontaines و الدكتور « توماس شو » Thomas Shaw البريطاني الذين أسهبوا بمهامهم العلمية في إثراء معالم و مصنفات طبيعة بايلك الشرق و مظاهره و مقوماته و بنيته الإجتماعية.

لذلك سنحاول تسليط الضوء على حركية تلك الرحلات الأوربية و مدوناتها من الشواهد و الملاحظات و التجارب العلمية المتقاربة في المكان ضمن مجال جغرافية بايلك الشرق و في فترة

التونسية أو الجزائرية، فالقبائل المتواجدة من الكاف و الجريد التونسي كأولاد بن شنوف و أولاد سعيد أعلنت التمرد على الحاكم التونسي حمودة باشا (1645-1622م)، وحالفت قبائل أولاد صاولة المتواجدة بالحدود الشرقية لبايلك قسنطينة⁽¹¹⁾.

هذه الأخيرة ربطت علاقات مع قبيلة الذواودة بالزاب الشرقي من الأيالة ولها فرع من أسرة علي بن السخري بوعكاز التي صاهرت باي بايلك الشرق رجب باي 1084هـ / 1673م⁽¹²⁾.

كما كان بايات تونس يستعينون بشيوخ قبائل أحرار الحنانشة التابعة لمحيط بايلك قسنطينة خلال حملاتهم على أيالة الجزائر، ما دفع تلك القبائل و شيخها بوعزيز بن ناصر سنة 1724م تعلن عصيانها و رفضها في دفع الضرائب السنوية ، جعلت الباي حسين بوكمية حاكم البايلك (1713-1736م) يخرج بحملة عسكرية لتأديب شيخها الذي أعلن استسلامه ، رضوخا لنصائح كبار أشياخ قبيلة الحنانشة⁽¹³⁾، ورغم ذلك فإن قبائل الحنانشة بقت متعاونة مع بايات تونس و رافضة التعامل مع بايات قسنطينة ، حتى وإن أرادوا مصاهرتهم حيث رفضت ابنت ابراهيم بن بوعزيز بن ناصر شيخ أحرار الحنانشة الزواج من صالح باي حاكم بايلك قسنطينة فشن عليهم حملات انتهت بالقبض على شيخ القبيلة و سجنه و موته سنة 1186هـ / 1773م⁽¹⁴⁾.

لقد كانت منطقة الحضنة الغربية منطقة مد و جزر بين سلطة بايلك الشرق و بايلك التيطري نتيجة حركية القبائل الحدودية الباحثة عن مناطق النجوع و الرافضة لدفع المطالب المالية المخزنية و الخضوع لمشيخة حكم أولاد مقران ، ما جعل ذلك المجال الجغرافي بين البايلكين متوترا أمتد أثره حتى في القبائل الجنوبية للتيطري ، المتمثلة في سلطة

وسفوح جبال جرجرة غربا⁽⁶⁾ و نفس الشيء أكده « الزهار» إذ يقول « يمتد من الشرق من عمالة تونس حتى وطن حمزة غربا الذي ينتمي إلى عمالة «قسنطينة»⁽⁷⁾.

أما الرحالة « شو» Shaw الذي اجتهد في وضع حدود تقريبية لا تختلف عن التي صرح بها العنصري، إذ يرى «شو» أن مقاطعة قسنطينة - كما سماها- يحدها من الشمال البحر الأبيض المتوسط ومن الشرق تونس ومن الجنوب منطقة الزاب ومن الغرب مقاطعة الجزائر، و المسافة من الشرق إلى الغرب 95 فرسخ أي حوالي 380 كلم ، ومن الشمال إلى الجنوب 58 فرسخ حوالي 232 كلم ، وساحلها يبدأ من دلس إلى بونة⁽⁸⁾ ، وجسد تلك الحدود في خريطة دقيقة لبايلك قسنطينة في القرن 12 هـ / 18م توج بما بحثه واجتهاده فكانت من أهم الخرائط التي وضحت معالم البايلك في تلك الفترة ، في حين يرى الرحالة الفرنسي بايسونيل Peyssonel أن حدود البايلك تمتد على مسافة تقارب 100 مكان من الشرق إلى الغرب ومن ساحل البحر شمالا إلى الصحراء جنوبا⁽⁹⁾.

إلا أن هذه الحدود لم تعرف الاستقرار والثبات لأنها لم تكن تُحترم من طرف قبائل النجوم وهو الأمر الذي جعل الباحث الفرنسي « أندري نوشي» A.Nouschi ينعتها بالحدود المتحركة Frantiers marche وقد علل حكمه هذا بوجود سلطة إدارية مشيخية قبائلية تتحكم في امتداد و حركية القبيلة وتكون همزة وصل بين الباي وسكان الريف ولذلك أثرت تلك العلاقة على الحدود المشاعة التي تملمت وأصبحت غير واضحة حسب طبيعة القيادات و حُكمهم⁽¹⁰⁾، لذلك عرفت القبائل القاطنة في الحدود الشرقية من البايلك بعض الصراعات بسبب النفوذ و فرارها من الضرائب و اعلانها الإنتماء إما للأيالة

الجزائر كلها بفضل امتداده الشاسع وتنوع مصادر الرزق والحرف الصناعية والأنشطة الزراعية والتجارية إلى جانب عنصر مهم ساهم في إضفاء هذه الأهمية على البايك هو تنوع مقوماته الطبيعية والبشرية تنوعا إيجابيا.

لهذا السبب كان محل أطماع عيون كثيرة من القارة الأوروبية ترجمت إلى رحلات تعددت دوافعها صوب أقاليم الجزائر العثمانية عامة و باييك الشرق خاصة، كانت أغلبها منظمة ومخطط لها للبحث و زيارة الجزائر في إطار الوفود والسفارات والبعثات ، بحيث كان الرحالة يضع لنفسه أهدافا محددة لتحقيقها، على عكس بعض الرحلات التي كانت اضطرارية حيث وجد أصحابها أنفسهم في بلادنا دون مشيئتهم.

ثانيا : تضاريسه :

فمن تضاريسه ومناخه يتألف باييك الشرق الجزائري من عدة مناطق مختلفة في مناخها وطبيعتها والتي تتشكل من حزامان متوازيان ابتداء من الشمال عند ساحل البحر وانتهاء بالامتداد الصحراوي الشاسع بالجنوب حيث نجد « العنتري » يقول أن «الشرق القسنطيني بصفة عاملة جبلي في معظمه، من حيث المظهر التضاريسي، تلتقي في وسطه سلسلتا جبال الأطلس الشمالية التلية والجنوبية الصحراوية عند كتلة جبال الأوراس، وليس فيه من الأحواض والسهول سوى حوض وادي الصومام والسهول العليا القسنطينية و منبسطة تبسة وحوض وادي سوف ووادي ريف و سهول عنابة و سكيكدة».(19)

فمن خلال ظاهرة التضاريس التي تمتاز بها المنطقة ابتداء من الساحل وصولا إلى الصحراء يمكن تقسيمها إلى ثلاثة مناطق من الشمال نحو الجنوب على الشكل التالي:

قبائل أولاد نايل التي واجهت باي باييك التيطري عصمان باي سنة 1763م في موقعة كدية الباي جنوب الزاغر و قضت عليه (15)، و انتقل صداها إلى قبائل الحضنة، ما دفع بالداي محمد عثمان باشا يأمر صالح باي حاكم باييك قسنطينة بالتحرك إلى جنوب التيطري و تأديب قبائل أولاد نايل سنة 1773م في موقعة ملاح مصيف و استولى على قوافلهم فاستسلموا ، و أعطى لهم الآمان و قفل راجعا إلى عاصمته (16)

وفي نفس السنة أعلنت قبائل أولاد ماضي بالحضنة الغربية العصيان ضد مشيخة بورنان المقراني المشرفة على قيادة المنطقة و سياسة الضرائب المفروضة ، فامتدت حركتها من أولاد الدراج بالحضنة الشرقية إلى أولاد سيدي عيسى و أولاد مختار باييك التيطري (17) ، فسارت القوة العثمانية و فرسان مشيخة المقراني نحو بؤرة التمرد و أخضعت بعض القبائل الموالية لأولاد ماضي كقبائل وادي الشلال و أولاد يحي و علي بن خالد، وبقت صفوف من أولاد ماضي منهم عائلة بوراس بوضياف على عصيانها، مهددة استقرار الحدود الشرقية لباييك التيطري، و سارت على خطاها قبائل أولاد نايل في الجنوب ، مستغلة انشغال دار الإمارة في عهد الداوي عثمان باشا بالتهديدات الخارجية و حملة الكونت أورلي سنة 1775م ، ما جعل ديوان الداوي يراهن على الباي سفضة حاكم باييك التيطري في قيادة حملة ضد قبائل أولاد نايل للحد من خطورتها لكنه هزم و لقي حتفه سنة 1775م لقلة عدده و عدته (18) .

ولقد عرف باييك الشرق أهمية كبرى خلال الفترة العثمانية من خلال الإمكانيات الهائلة التي يتوفر عليها بحيث يعد أهم الباييكات وأكثرها ثروة وخصوبة ومساحة ، يتربع على مساحة تقدر بحوالي 80 ألف كلم² إذ يمثل 5 بالمائة من مساحة

الحدود التونسية وإقليم غربي حتى جبال البيان، وتعرف الجهات الشمالية لهذين الإقليمين بالتل والجنوبية بالسبّاخ والشطوط مثل الشط الشرقي و شط الحضنة (25).

ج . منطقة الأطلس الصحراوي :

وتتكون من منظومة جبلية طولها 700 كلم تمتد من الفجيج غربا حتى إقليم الزاب شرقا باتجاه يكون نحو الجنوب الغربي ، ابتداء من جبال الحضنة التي تشرف في جهاتها على الهضاب العليا، إلى كتلة جبال الأوراس والتي هي ضمن الأطلس الكبير، وتعتبر حداً للصحراء من جهة الشمال، أما مرتفعات النمامشة و تبسة فهي ذات ارتفاع متوسط (-1200 1400م) (26) والتي تتأثر بالمناخ الصحراوي في السفوح الجنوبية ، لذلك تتميز بندرة الأمطار التي يقدر متوسطها ما بين 400 إلى 800 ملم سنويا على عكس كتلة جبال الأوراس الأكثر ارتفاعا (قمة شيليا ب: (2326م) هذا ما أدى إلى ارتفاع نسبة الأمطار بها إذ تتراوح ما بين (800-500ملم) رغم عدم انتظامها. (27)

ثالثا : تراجم الرحالين (بايسونيل،

دي فونتين ، شو)

أ . ترجمة العالم بايسونيل (-Peys sonnel)

هو «جون أندري بايسونيل Jean André (1694 - 1775) peyssonnell) أبوه » شارل بايسونيل» وأمه «آن ازوارد» Anne Isouard من عائلة نبيلة، زاول دراسته الأولى في مرسيليا في كولييج ديسبرس - Collège Des pers ثم أتمها في باريس ،حيث وجد الإهتمام من

أ . المنطقة الساحلية:

تتألف المنطقة من سلاسل جبلية تمتد [من الشمال إلى الجنوب] على طول البحر وتشرف على واجهة عريضة من البحر الأبيض المتوسط تمتد من القالة حتى بجاية (20)

وقد أعطى الرحالة « شو » Shaw وصفا لساحل هذه المقاطعة « من واد بوبراك (واد بالقرب من مدينة دلس) حتى بُجيا Bougieal وتقريبا حتى بونة هي جبلية ومملوءة بالصخور..» (21) والجبال متدرجة في ارتفاعها من الغرب إلى الشرق، إذ تتميز الجهة الغربية منها بارتفاعها وقربها من البحر مقارنة بالجهة الشرقية وهذا ما يظهر في انخفاض قمة السلاسل في نفس الاتجاه، جبال البابور (2004م) ، القل (1183م) الإيدوغ (827م) بن صالح والقالة (659م) (22)، تتخلل هذه الكتل الجبلية عدة سهول خصبة تكون واسعة في الناحية الشرقية مثل السهول العنابية ، وضيقه و تكاد تختفي في منطقة الصومام و جيغل (23) أما من حيث المناخ فقد تميزت المنطقة بالإعتدال في درجات الحرارة والضيق في الفوارق الفصلية والتي يقدر معدلها السنوي ب: 15° ومستوى التساقط في المنطقة مرتفع محصور بين 700-1000 ملم في بعض المناطق الجبلية.

ب . منطقة الهضاب أو السهول

العليا :

تمتد بين السلاسل الجبلية الساحلية والسلاسل الجبلية في الجنوب تدعى جبال الأطلس وتكون على شكل هضبة واسعة منبسطة الأطراف (24) يتراوح علوها ما بين (900-1000م) وهي أكثر ارتفاعا باتجاه الشرق، و تتألف من إقليمين تفصل بينهما مدينة قسنطينة إقليم شرقي يمتد حتى

بالملاحظات العلمية الهامة و بالمفاهيم و المعلومات
عن النظام السياسي للجزائر⁽³²⁾

. لمحة عن كتابه:

من المعروف أن هذا الكتاب يحوي جزئين،
الجزء الأول خاص بملاحظات العالم الفرنسي «
بايسونيل» والجزء الثاني للعالم « دي فونتين»
للشبه الكبير في ملاحظاتهم كونهما زارا نفس
المنطقة (شمال إفريقيا) رغم أن «بايسونيل» كان
يصف فقط ما يشاهده عكس « دي فونتين» كان
يحللها ويعطي آراء خاصة به، وعنوان هذا الكتاب:

Voyage dans les régences de
Tunis et d'Alger «publies par
M.Dureau de la malle membre
de l'institut (Académie des
inspection et belles lettre)paris,
libraires de Gide ,éditeur des
Annales des voyages.1838
، أما الجزء الخاص بـ «بايسونيل» فهو تحت
عنوان: « رحلة على السواحل البربرية»
Relation d'un voyage sur les
cotes de Barbarie fait par ordre
du roi 1725-1724

هذا الكتاب يحتوي على سبعة فصول، تضمن
الفصل السادس ملخصاً عن رحلته من الجزائر إلى
قسنطينة إلى بونة، و احتوى الفصل السابع ذكر
القالة، حيث تحدث عن المستنقعات غير الصحية أو
المضرة و تناول بإسهاب صيد المرجان و أهميته⁽³³⁾

ب . ترجمة دي فونتين: René Desfontaines Louiche

هو رينيه لويش دي فونتين René
Louiche Desfontaines

(1750-1833) من عائلة متوسطة في نهاية

الكونت «مارسيقلي» -le compte marsi- gli
صديق العائلة الذي وجهه إلى دراسة التاريخ
الطبيعي، عُين في 21 أوت 1723م مراسلاً
لأكاديمية العلوم كما عمل طبيباً ثم أرسل إلى
إفريقيا الشمالية.⁽²⁸⁾

كانت تلك المهمة في سنة 1724م بأمر
ملكي بهدف دراسة التاريخ الطبيعي لأيلة الجزائر
وتونس، فقام بدراسة طبيعة المرجان وبحث حول
مكونات ظاهرة الطاعون الذي توفي به والده -
الطبيب كذلك- لما عم بين سكان مرسيليا سنة
1720م ، لقد اعتقد «بايسونيل» في بادئ الأمر
أن طبيعة المرجان معدني ثم نباتي، وتوقع هو بصدق
أنه حيواني وقد بدأت الأبحاث التي قام بها حول
هذا الموضوع في سنة 1724 و 1725م ولكنه لم
يستطع إقناع الأوساط العلمية الفرنسية بما توصل
إليه والتي لم تُجزه إلا بعد مدة طويلة من الإقناع⁽²⁹⁾
و ذلك ما كان يهدف إليه من رحلته، إلا أن
بايسونيل يذكر أهدافاً أخرى لرحلته في رسالة
بعث بها إلى الأب «بنبون» -Mlabbe .Bi- gnon
الذي أقرحه على الملك⁽³⁰⁾ إذ يقول «
سوف تكون خليطاً من التاريخ الطبيعي، أصناف
النباتات والحيوانات، الأمراض ووسائل علاجها،
سوف أحاول حتى أن أدخل ملاحظات حول
الجغرافيا القديمة والحديثة، سوف أبحث وأسجل
المخطوطات العربية، الكتابات الأوسمة والتماثيل
، سوف يكون خليطاً من كل ما يتعلق بالفيزياء،
التاريخ والأدب»، و كان «بايسونيل» مراسلاً
لأكاديمية العلوم مونتبلييه Montpellier
ومرسيليا Marseille et Rouen وروان⁽³¹⁾

ألف كتاب حول رحلته سماها : «رحلة على
سواحل بربريا» Relation d'un voyage
sur les cotes de la Barbarie مدججة

ذكر في الفصل العاشر ملاحظات حول شجرة سنديان (le chêne) وعُذتها الحلوة وأيضا حول أشجار العلك.

ج. ترجمة الدكتور « توماس شو » Thoms Shaw:

عالم وطبيب، ولد بكيندال بانجلترا حوالي 1106 هـ/1694م تقلد منصب رئيس كلية الطب بأكسفورد، كان عضو في إكليروس الكنيسة وعمل موظفا في الوكالة التجارية الانجليزية بالجزائر⁽³⁷⁾ يعد من أشهر رحالة أوروبا، حيث قام بزيارة المغرب الأوسط في بداية القرن 12هـ 18م مكث فيه ما بين سنة 1133 - 1146هـ الموافق لـ 1720-1732م ، كان مقر إقامته الجزائر العاصمة⁽³⁸⁾، في سنة 1727م قام برحلة قصيرة إلى منطقة تونس وزار بعض بلدان المشرق ، اعتمد المنهج العلمي في استعادة الجغرافيا القديمة في رسم الخرائط وفق واقع الطبيعة و ما دونه المحدثون، و بحث في علم الآثار ومكونات الكتابات القديمة (épigraphie) ووضع الإستنتاجات لكل الدراسات التي تطرق إليها في عصره ، و بنى دراسته المناخية على نباتات الطبيعة والإنتاج الزراعي والحيواني، كما اعتمد على تقييم الملاحظات و تصنيفها من منطلق التجارب التي كان يقوم بها مستعينا في بعض الأحيان بعلماء أكسفورد و ما تحتويه بنايات و مكتبات رجال الدين الفرنسيين من وثائق تناسبه .⁽³⁹⁾

بعد رحلته عاد إلى إنجلترا واستقر بأكسفورد، و توفي بها سنة 1751م تاركا منتوجا ومصدرا هاما للعالم عامة والجزائر خاصة⁽⁴⁰⁾ -استوحاه- من تجربة صادقة ورؤية علمية خالصة أملاها عليه ذكاؤه وحب اطلاعه، جسده في صفحات كتابه تحت عنوان « رحلة في أيلة الجزائر وتونس ».

قرن الأنوار، من رواد الفكر البرجوازي و الملكية المعتدلة كضرورة للتقدم الاقتصادي، كان «دي فونتين» عضوا في أكاديمية العلوم وأستاذ علم النبات في حديقة الملك أرسل إلى أيلة الجزائر و أيلة تونس ما بين سنوات 1783 و 1786م حيث أهتم بالنبات والأزهار والطبيعة البكر والأرض الخصبة والزراعة، وأخذ معه بعد مدة قضاها بالأيلتين مجموعة هامة من الأعشاب حفظت بمتحف العلوم الطبيعية بباريس، استعملها في إصدار كتابه حول نباتات الأطلس⁽³⁴⁾ فعن مشروعه يقول : « في 1783م عازمت القيام بمشروع رحلة إلى السواحل البربرية للقيام بملاحظات حول جغرافية العصور الغابرة les antiquités ، وعادات السكان إلى جانب التاريخ الطبيعي وقد تبين لي أن هذه المناطق لم يقم بزيارتها أي عالم طبيعيات ».⁽³⁵⁾

لقد حضني « دي فونتين » بتسهيلات إدارية وعملية للقيام برحلته هذه حيث قال « لقد منحت لي ضمانات عن طريق عدة وسائل من قبل السيد « دي كيرسي » M. Derkercy قنصل فرنسا في الجزائر و سوف يكون باستطاعتي الولوج إلى داخل الأراضي والتجوال في ممالك تونس والجزائر، ومن حدود طرابلس حتى الحدود المغربية منه »، كما استفاد من امتيازات في مجال البحث العلمي إذ يقول: « عندما عرضت مخططي على أكاديمية العلوم وجدت تأييدا لذلك ومنحت لي الأموال اللازمة لمشروعي »⁽³⁶⁾.

. لمحة عن كتابه:

تناول دي فونتين في الفصل الثامن مذكرة حول الحالة الراهنة لجزيرة طبرقة، تجارها ومنافعها، وبيّن في الفصل التاسع ملاحظات حول النباتات الاقتصادية التي تنمو في إقليم تونس والجزائر، و

لمحة عن كتابه .

الفصل التاسع .

فتوماس شو الذي استغلّ وقته أثناء عمله في الوكالة التجارية الانجليزية طيلة الإثني عشرة سنة في البحث والدراسة، وظف ذلك في كتابة الجزء المتعلق برحلته في أيلة الجزائر ميرزا الجوانب الإجتماعية والاقتصادية والطبيعية هذه الأخيرة شكلت أحد أقسام تصنيفه الهام حول رحلاته إلى المغرب والمشرق، رغم أنّ عمله في الأساس كان دينيا بحثا يقتضي منه الإشراف على كنيسة الوكالة التجارية البريطانية والنظر في شؤون الرعايا التابعين لها.

بينما كانت زيارة الطبيب الفرنسي بايسونال J.A Peyssonnel، لسواحل برباريا في سنتي 1724 و1725م واضحة الأهداف تطمح لانجاز مهمة علمية أرادها أن تكون مهمة رسمية لكنها لم تحزّ لا على الاعتراف ولا على التمويل من السلطات الفرنسية إلا انه واصل أبحاثه وأطلعنا على العديد من الأمور الغامضة في حياة بايلك الشرق .

جدول يضم أهم الرحلات الأوروبية نحو الجزائر خلال القرن 18

الرحالة	تاريخ الرحلة	الأماكن التي زارها	مدة الإقامة	دوافع الرحلة
توماس شو	1720	الجزائر، وهران الشلف، قسنطينة، جرجرة، عنابة	12 سنة	علمية
بايسونيل	1724	قسنطينة، الجزائر، عنابة	سنة واحدة	علمية

لقد حرر الدكتور «شو» مؤلفه باللغة الانجليزية تحت عنوان «-traveled or observation relating to several parts of Barbary» و تم نشره بأكسفورد عام 1783، وترجم فيما بعد إلى اللغة الفرنسية في «لاهاي» عام 1743م وعلق عليه «جون ماك كارتني J.MAC. Carthy عضو في الجمعية الجغرافية لباريس تحت عنوان :

Voyage dans la régence D'alger ,Description géographique ,physique ,philologique ,ETC de cet état par le Dr Shaw

تناول من خلاله قاموس جامع للجغرافيا الفيزيائية السياسية، التاريخية، التجارية، ووضع خريطة لأيلة الجزائر وتونس، ثم قسم كتابه إلى فصول أعطى لكل فصل عنوانا حسب المضمون الخاص به ، ففي الفصل الأول تطرق لطبوغرافية مقاطعة الجزائر تربتها، مناخها ومنتجاتها، وتحدث في الفصل الثاني عن الحشرات ورباعيو الأقدام، العصافير والأسماك وغيرها، و تكلم في الفصل الثالث عن العلوم، الفنون، المصنوعات، العادات والتقاليد المستخدمة، ووصف مقاطعة قسنطينة في

علمية	سنتان	الجزائر، بلدية، عنابة، القالا، قسنطينة، معسكر، تلمسان	1783	دي فونتين
جوسسة	3 سنوات	الجزائر، وهران	1717	خيمينيس(41)
	5 أشهر ونصف	الجزائر العاصمة	1718	دوتاسي(42)
استطلاعية	14 سنة	قسنطينة	1722	أولوفيس(43)
استطلاعية	شهران	الجزائر	1725	الآباء(44)
سياسة	8 ايام	الجزائر	1731	طولو(45)
علمية	5 أشهر	الجزائر، البلدية، قسنطينة، مليانة، عنابة، القالا	1732	هينشرايت (46)
جوسسة	سنة	عنابة، وضواحيها	1777	كوكوفتسوف (47)
/	/	الجزائر، قسنطينة، عنابة، سكيكدة، القالا	1785	بوراي(48)

رابعا : الزراعة

كما خصصت المرتفعات الجبلية للرعي وهذا ما سمح بخلق نوع من التوازن بين مواصفات البيئة ومستوى المعارف الفلاحية آنذاك⁽⁴⁹⁾

فعن المناخ والتساقط الذين يعتبران من مقومات الزراعة في بايلك الشرق، أورد شو Shaw « نادرا ما تتساقط الأمطار في الصيف على السواحل، وتقريبا لا تتساقط أبدا في الصحراء»⁽⁵⁰⁾

أما دي فونتين Desfontaine فيتحدث عن المناخ في قسنطينة إذ يقول « الهواء في قسنطينة جد قارس ولاذع في فصل الشتاء إذ نجد عدة درجات تحت الصفر في شهر فيفري و مارس والثلج يسقط بكميات كبيرة تجلبها الرياح القادة

كان للظروف المناخية ونوعية التربة وتمط العيش تأثير مباشر على الزراعة بالأريال الجزائرية في العهد العثماني، فاختلف المناخ من منطقة إلى أخرى أدى إلى ارتباط زراعة البقول والحبوب بالسهول الساحلية، واختصاص المناطق الجبلية بالأشجار المثمرة، وتركز الرعي في مناطق الهضاب العليا القسنطينية مع زراعة معاشية بسيطة، أما اختلاف نوعية التربة فهي الأخرى أدت إلى التخصص في توزيع المزروعات، فالأراضي الجبلية استنبتت فيها الأشجار المثمرة والأراضي الفقيرة اختصت بزراعة الشعير والأراضي الرطبة البقول والذرى،

الحد الأدنى للتبادل التجاري في ظل رواج السلع الأوربية، حيث كانت اهتمامهم موجهة لتأمين محصول الحبوب، إذ شجعوا استغلال الأراضي الخصبة التي تنتشر حول المدن وحاولوا أن ينتجوا منها كميات كبيرة من الشعير و الخرطال وبخاصة القمح الذي يعتبر الغذاء الرئيسي للسكان وأحد الموارد المهمة للتصدير.⁽⁵³⁾

لقد تميزت أراضي البايلك بخصوبتها وفرة الإنتاج الفلاحي والرعي وذلك ما أشار إليه العالم دي فونتين بأن « أغنى مناطق المملكة هي نواحي قسنطينة وبونة... »⁽⁵⁴⁾ ونفس الحال أورده حمدان خوجة عن عطاء الأراضي السهلية « الأراضي شديدة الخصب بحيث أن ارتفاع سنابل القمح والشعير يزيد في بعض الأحيان عن قامة الرجل، وفي أثناء الحصاد تحمل السنابل القصيرة »⁽⁵⁵⁾

وقد أعجب بايسونيل Peyssonnel بشساعة سهول عنابة التي تمتد على مساحة تقدر بجوالي ألف ومائتي ميل مربع فقال في تحديدها « السهول الواسعة بعنابة على مسافة عشر أماكن يقابلها خمسة أو أربعة من العرض مكلفة بجبال شاهقة في جنوبها » و عن خصوبتها « تلك السهول غزيرة و كثيفة بالحبوب »⁽⁵⁶⁾، و بعد حصادها تنتشر الإبل و الأحصنة بين بقايا التبن للرعي، ثم يتخلص من الشيء المتبقي بإحراقه، و ليس دائما تتمتع تلك المزارع بإنتاج الحبوب فقد تغزوها أسراب الجراد و في ذلك يقول « بعض مناطق البلاد تعاني من الجفاف (كونه يتنقل من منطقة إلى أخرى) وأخرى قضى عليها الجراد، مؤسف أن نرى بقايا المحاصيل من التين والسنابل بدون حبوب لأن الجراد قد التهم كل شيء منذ تسعة سنوات والأراضي على هذا الحال »⁽⁵⁷⁾، كذلك نجد «فونير دي برادي» Venture De Paradis يتحدث عن وفرة الحبوب في قوله «

من الغرب، أما رياح الجنوب فتجلب المطر ورياح الشمال تشتت الغيوم وتعطي جوا حارا» كما يضيف « المناخ صحي والأمراض الملاحظة تنشأ من سوء استعمال الفواكه الخضراء».⁽⁵¹⁾

و عن موارد المياه بالمنطقة فقد أشار الباحثون الجيولوجيون أن دراسة مصادر المياه له علاقة وطيدة بدراسة التكوينات الكلسية للمنطقة، حيث نجد « محمد المهادي لعروق » و « عبد العزيز فيلاي » قد أشارا إلى أن مياه الأمطار والثلوج تتسرب إلى باطن الأرض، حيث تشكل التكوينات الكلسية المتمركزة خصوصا في جنوب قسنطينة والتي تسمى بمنطقة الجبال القسنطينية خزانات مائية هامة منها⁽⁵²⁾، جبال سيدي رغييس وأم كشريد وحنوت ونيف النسر وقلعة أولاد سالم و قريون و فرطاس و شطابة، حيث تتركز بها أهم الينابيع والطبقات المائية المخزونة داخل الصخور الكلسية وكذلك منطقة سهل عين مليلة إلى جانب هضبات مدينة قسنطينة والتي هي مصدر لعدة ينابيع مائية خاصة في أهدود وادي الرمال وهي معظمها ينابيع معدنية ذات حرارة مرتفعة، أما في المنطقة الواقعة إلى شمال مدينة قسنطينة فيوجد منبع عين الحامة طاقته 900 لتر/ ثانية، وقد قدر تقرير المهندس الجيولوجي Durozoy Guy بأن الطاقة المائية المخزنة بالكتل الكلسية الواقعة في منطقة المدينة تساوي 28 مليون متر مكعب تستغل في مجالات عديدة.

وتتميز أراضي إقليم الشرق الجزائري بالخصوبة مما أدى إلى وفرة الإنتاج الفلاحي والمتمثل في:

أ. زراعة الحبوب: عندما تراجع مداخيل القرصنة أواخر القرن 18م أدى بالبايلك إلى تنظيم الزراعة لمواجهة ندرة المحصول والمنتوج في الأسواق، فسعى الباي وموظفيه في توفير

العموم خصبة، فلا توجد قطعة أرض لا تنتج أكثر من غلة في السنة وأن 2 صاع و 1/2 من القمح أو الشعير تكفي لزراعة قطعة أرض واحدة» ويضيف أن النوع الصلب هو الصنف الوحيد الموجود في هذه الأرض.⁽⁶²⁾

كما يرى "توماس شو" أن هذه الحبوب متنوعة وتتميز بوجودها لطبيعة تربتها الجيدة، تأتي من تسيلة (Tessailah) وزيدور (Zeidoure) وفي بعض المقاطعات تكتفي بالري صيفا كمروج سيك (SIKKE) والهبرة (HABRAH) وفي منطقة متيجة (Mettidjah) وقرب مروج الحامة (Elhammah) أسفل قسنطينة حيث يبذرون الأرز والذرى الصفراء وخصوصا نوع من الذرى البيض الذي يسميه العرب الدرا (drah) والذي يفضلونه على الشعير لعلف ماشيتهم. أما فيما يخص الشوفان فلا يزرعونه أبدا ويعلفون أحصنتهم عامة الشعير⁽⁶³⁾. وقد أثنى عن قسنطينة فقال «كل هذا البلد كثيف بزراعة القمح والشعير»⁽⁶⁴⁾

أما "دي فونتين" فيشير أن زراعة الحبوب امتدادها واسع تمتد إلى شمال الصحراء بل أن زراعة القمح موجودة في الصحراء ولكن بمساحات قليلة بسبب نقص الأمطار⁽⁶⁵⁾، و إلى جانب الحبوب، ويتميز البايك أيضا بغلات ذكرت في كتاب صاحب الاستبصار في عجائب الأمصار لمؤلف مجهول الذي وصف البلاد بقوله «وهي أنزه البلاد وأكثرها لبنا ولحما وعسلا وحتا»⁽⁶⁶⁾، و من مميزات تلك المحاصيل أضاف «دي فونتين» أن عناية تنتج محاصيل جيدة من دون وضع الأسمدة.⁽⁶⁷⁾

كما أشار "فونتين دي برادي" Venture De Paradis إلى أن الأرض كانت كثيرة

أحسن الحبوب والسنبلة التي تحمل أكبر عدد من الحب هو الذي في مقاطعة قسنطينة».⁽⁵⁸⁾

تلك الشهادات التاريخية جعلت المؤرخين الشيخ المهدي بوعبدلي وناصر الدين سعيدوني يوضحان غنى البايك بمادة القمح وأهميتها في الاستهلاك المحلي والتصدير الخارجي إذ يقولوا «نظرا لأهمية الحبوب، فقد عملت الدولة جاهدة للسيطرة على المساحات المخصصة لزراعة الحبوب والتي كانت تنتشر حول مدينة قسنطينة... إذ قدرت المساحات المخصصة لزراعة الحبوب والتي يمتلكها البايك في القطاع الشرقي أواخر العهد العثماني ما يعادل 4800 جابدة».⁽⁵⁹⁾

أما الدكتور "شو" Shaw فقد تحدث في هذا الصدد مطولا وبكثير من التفصيل بدءا من بدايات التساقط حتى وقت الجني والقطف حيث يقول «إن بداية تساقط الأمطار تكون في شهر سبتمبر وأحيانا أكتوبر، حيث يبدأ العرب إذن في عملية الحرث ثم يزرعون بعد ذلك القمح ويبذرون الفول، أما الشعير والعدس و (les gorvan- ços) نوع من الحمص فلا يبذرونه غلا بعد 15 يوما أو ثلاثة أسابيع من بعد، ولكن دائما قبل نهاية شهر نوفمبر في حالة ما إذا تساقطت المطار بعد الموسمية نحو منتصف افريل كما يحدث عادة فستحصل على محصول جيد، لكون الغلة في نهاية ماي وبداية جوان حسب الوقت الذي سبق هذه الفترة»⁽⁶⁰⁾، ويتفق معه «وليام سيسر» Wil-liam Spencer الذي يرى بأن الحرث «يبدأ عادة في وسط أكتوبر بعد سقوط الأمطار الخريفية ويأتي الحصاد في آخر ماي أو بداية جوان ويؤتمن على الموسم متى سقطت أمطار الربيع بوقتها المحدد في شهر أفريل».⁽⁶¹⁾ ثم يتحدث «شو» عن الكمية الكافية من الحبوب، ويشيد بخصوصية التربة في بربرية ويحدد مناطقها فيقول «التربة على

الحصب لكن أكثر من نصفها كان بورًا ، فحسب رأيه أن أحصب الجهات هي قسنطينة تليها معسكر ثم جنوب التيطري الذي يرى أنه أقل المناطق إنتاجاً⁽⁶⁸⁾، ونفس خاصية الأرض ذكرها «مارمول كرافجال» Marmol Carvajal عن عنابة «بها أجود أراضي بلاد البربر و أكثرها خصبا ..أما من جهتي الجنوب و الشرق فتجاور عنابة جبال يطيب فيها المقام و يلذ العيش تتصل بجبال قسنطينة، وبها كثير من المجاري و الجداول و أنواع الفواكه و الصيد و الطرائد أما جهة الشرق فتمتد تلال خصبة تجود بها الحنطة»⁽⁶⁹⁾ ، و يعتبر أراضي قسنطينة أكثرها غلة «بلد طيب كثيرة الحصب حتى إن الصاع الواحد من البذور يعطي ثلاثين صاعاً من الغلة و في أنحاءها عدد من المراعي الجيدة»⁽⁷⁰⁾ ما جعلها تضاهي أراضي سهول متيجة الحصب حسب قوله «سهول شاسعة كثيرة الحصب ينمو بها القمح و يكثر الكلاء»⁽⁷¹⁾، وحتى القنصل الأمريكي وليام شالر William Shaler وافقه في إبراز جودة السهول التي انبهر بها و بوفرة منتجاتها «مما لا جدال فيه أن الجزء الذي يسمى مملكة الجزائر من بلاد البربر ، تنطوي على مزايا طبيعية مغرية ، فالبلد له تربة خصبة تصلح لإنتاج مروحة واسعة من المنتجات»⁽⁷²⁾

لقد تحدث " شو" عن الكثير من الخضروات إلا أنه لم يحدد مناطق زراعتها ، ماعدا إشارته بوجودها على ضفاف الأودية و بالقرب من فحوص المدينة التي تنتشر بها زراعة البطاطا والخضر البعلية الجافة⁽⁴⁷⁾ و قد يكون عدم تمكن « شو» من تحديد توقعها و زيادة رصيدها معلومته منع الأهالي من دخول مزارعهم .

خامسا : عادات وتقاليد البربر في الحرث والحصاد والاحتفاظ بالمنتوج:

لقد اتسمت الزراعة في الريف على العموم باحتكار قبائل المخزن لها، حيث استولوا على مساحات زراعية واسعة في السهول العليا القسنطينية التي ظلت مهملّة، إذ أن ما يميز هذه الزراعة أنها تعتمد على وسائل بدائية بسيطة راجع إلى عدم اهتمام الأتراك بالأراضي الخصبة ومحاولة تطوير أساليب الزراعة⁽⁷⁵⁾ وعن هذه الثقافة الزراعية والفلاحية يتحدث «شو» الذي يقول عن طريقة الحرث عند البربر «زوج من البقر يستطيع حرث قطعة أرض»⁽⁷⁶⁾ ، ويقول أيضا «أن المور والعرب قد حافظوا على العادات الشرقية في درس القمح بأرجل الأحصنة لنزع قشوره ، إنها طريقة

الحصب لكن أكثر من نصفها كان بورًا ، فحسب رأيه أن أحصب الجهات هي قسنطينة تليها معسكر ثم جنوب التيطري الذي يرى أنه أقل المناطق إنتاجاً⁽⁶⁸⁾، ونفس خاصية الأرض ذكرها «مارمول كرافجال» Marmol Carvajal عن عنابة «بها أجود أراضي بلاد البربر و أكثرها خصبا ..أما من جهتي الجنوب و الشرق فتجاور عنابة جبال يطيب فيها المقام و يلذ العيش تتصل بجبال قسنطينة، وبها كثير من المجاري و الجداول و أنواع الفواكه و الصيد و الطرائد أما جهة الشرق فتمتد تلال خصبة تجود بها الحنطة»⁽⁶⁹⁾ ، و يعتبر أراضي قسنطينة أكثرها غلة «بلد طيب كثيرة الحصب حتى إن الصاع الواحد من البذور يعطي ثلاثين صاعاً من الغلة و في أنحاءها عدد من المراعي الجيدة»⁽⁷⁰⁾ ما جعلها تضاهي أراضي سهول متيجة الحصب حسب قوله «سهول شاسعة كثيرة الحصب ينمو بها القمح و يكثر الكلاء»⁽⁷¹⁾، وحتى القنصل الأمريكي وليام شالر William Shaler وافقه في إبراز جودة السهول التي انبهر بها و بوفرة منتجاتها «مما لا جدال فيه أن الجزء الذي يسمى مملكة الجزائر من بلاد البربر ، تنطوي على مزايا طبيعية مغرية ، فالبلد له تربة خصبة تصلح لإنتاج مروحة واسعة من المنتجات»⁽⁷²⁾

ب . زراعة البقول والخضار: إلى جانب زراعة الحبوب الواسعة نجد البايك يتوفر أيضا على إنتاج الخضر والبقول، يتحدث «شو» Shaw بهذا الصدد ويقول «أهم الخضار التي تزرع في إقليم الجزائر هي الفول، العدس، والحمص، أما فيما يخص البقوليات والفواكه فهي توجد بكميات كبيرة إن لم نقل أنها متتابعة ومحصولها يكون على طول السنة تقريبا، ومنها اللفت، الجزر والكرنب فهي جيدة وموجودة على طول الموسم بوفرة وهناك نوع من الجزر الأبيض الصغير يسمى اللفت المحفور Lift

لتستعيد خصوبتها».⁽⁸¹⁾

سادسا: المزروعات ذات الطابع التجاري:

وتتمثل هذه المنتوجات التجارية في القطن الذي ينتج بأراضي منطقة الحضنة وهضاب سطيف، والتبغ بمناطق الأوراس والهضاب العليا وواد سوف وعنابة⁽⁸²⁾، إضافة إلى زراعة الكتان والحشخاش (مخدر) والنيلة التي تميزت بضآلة مردودها إذ كانت تزرع في الساحل وفي المنطقة الجنوبية لقسنطينة⁽⁸³⁾، إلى جانب زراعة الأرز الذي انفردت بإنتاجه نواحي مليانة المتاخمة لنهر الشلف وفي الجهات الغربية لمتيجة وقد بلغ إنتاجه أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ستة آلاف صاع (6000 صاع)⁽⁸⁴⁾، واهتم سكان الأرياف بزراعة الزعفران والكمون والكروية ببطن الأودية يضاف إلى هذه المزروعات ذات الطابع التجاري إنتاج العسل والشمع التي كانت تشتهر به الجهات الشرقية من البايك بمنطقة القل خاصة.⁽⁸⁵⁾

سابعا : الأشجار المثمرة

يذكر "مارمول" أن المناطق الجبلية الممتدة من بجاية إلى غاية عنابة بها غلات و ثمار الأشجار التي تزود الأسواق بمختلف الفواكه « تبدأ من حدود بجاية و تمتد على طول الساحل إلى غاية عنابة على مسافة تزيد عن خمسة و أربعين فرسخا.. وأرضها طيبة رائقة كثيرة الزرع .. و سهول أوديتها كثيرة الخصب ، تغل كثيرا من الزيت و التين و غير ذلك من الثمار التي تزود منها جميع المدن المجاورة»⁽⁸⁶⁾، ويذكر محاسن الزراعة المثمرة بالجبال القريبة من مدينة القل « في هذه الجهة غابات شاسعة من الأشجار المثمرة ومن أشجار التوت»⁽⁸⁷⁾ و وصف زراعة تلك الأشجار المثمرة بأحواز مدينة جيجل

تعتبر أسرع من طريقتنا ولكنها أقل نظافة وبعد درسه بهذه الطريقة (on le vanne) يرميه مع مجرفة ثم يحفظ في مطامير أو مخازن تحت الأرض، واستعملت هذه الطريقة في العصور القديمة»⁽⁷⁷⁾ ويصف لنا هذه المطامير فيقول « شاهدت مرارا 200 أو 300 مطمور مجتمعة، أصغرها حجما قادرة على استيعاب 400 صاع من القمح».⁽⁷⁸⁾ ويوافق «حمدان خوجة» في ما تقوم به القبائل في حفظ المزروعات إذ قال « توجد لديهم طريقة للإحتفاظ بالحبوب سنوات متعددة دون أن يلاحقها ضرر وذلك بأن يضعوها في مطامير بعيدة عن الهواء والرطوبة، وإنك لتجد عندهم، بدون مغالات قمحا مخزونا منذ أكثر من 15 سنة، إني متأكد من هذه الحقيقة المعروفة في إفريقيا معرفة جيدة ولكننا نلاحظ عند طحن هذه الحبوب التي تخزن طويلا لا تحتفظ بنفس البياض الذي يتسم به القمح الجديد كما يكون له طعم لا يطيقه جميع الناس ويحبه هؤلاء الناس حبا جما».⁽⁹⁷⁾

ولم يخرج عن هذا الشأن عما قاله "ناصر الدين سعيدوني و المهدي بوعبدلي" اللذان قالوا أن الفلاح في تلك الفترة لجأ إلى المحافظة على إنتاجه من الحبوب في مطامير وجرار كبيرة واستعمل الحيوانات في الدرر، واستخدم الرياح في تصفية الحبوب والانتفاع بالتبن في الطهي والعلف.⁽⁸⁰⁾

ويضيف سعيدوني قائلا « بأن النشاط الفلاحي في قسنطينة لم يعرف تطورا في مردوده بسبب استعمال الآلات البسيطة التي أصبحت منذ أواخر القرن 18 م لا تتعدى المحراث الخشبي الذي لم يتطور واستعمل المنجل البسيط الذي يتلف السنابل أكثر مما يحسبها والاتجاه إلى رماد الأعشاب المحروقة وفضلات الحيوانات لإخصاب التربة وأحيانا يلجأ الفلاح على ترك الأرض بورا لمدة سنة أو أكثر

رغم أن الدكتور "شو" أسهب في ذكر جميع أنواع المزروعات والأشجار المثمرة الموجود في مملكة الجزائر بصفة عامة، إلا أنه لم يتحدث بوضوح عن مناطق انتشارها وكذا خصائصها الطبيعية (مناخ، تربة)، ماعدا حديثه عن الأرز والزيتون اللذان قال عنهما بأنها ينموان في كل مناطق البربر وتقطف ثمارها كل سنتين، كما وصف شجر ثمرة القسطل (Chataigns) التي حجمها صغير و ذوقها لذيذ مثل تلك المتوفرة في فرنسا واسبانيا.

و يذكر "شو" خلال دراسته لبعض أصناف الأشجار أنه تعرف على شجرة البندق -noise tier و شجرة البرقوق (groseillier) و أن العنب ينضج في نهاية شهر جويلية ويكون قطفه في شهر سبتمبر، وبشأن العنب أنه قبل اجتياح الجراد سنة 1723 و 1724 م كانت الجزائر تنتج خمرا لذيذا شبيها بخمر اسبانيا والبرتغال»⁽⁹²⁾ ، فمن خلال ما ذكره «شو» قد نتساءل هل كانت هناك مزارع تنتج عنب الخمر فعلا، وكيف يباع في بلد يحكمه الشرع الإسلامي؟

يوصل "شو" كلامه ويقول بأن أشجار الليمون مثمرة ومزهرة على طول السنة وكذلك شجر البرتقال الحامض (Oranger aigre) ولكن البرتقال الحلو (Oranger doux) والذي يعتبر غريب عن مناخ المنطقة لا يعطي ثمارا إلا في نهاية الخريف، أما عن السفرجل (coing) الزعرور (nèfle) والعناب (La corne) ليسوا بكميات معتبرة⁽⁹³⁾.

ثامنا: الثروة السمكية :

على الرغم من أن⁽⁹⁴⁾ بايلك قسنطينة يتوفر على ساحل معتبر يمتد من عنابة حتى بجاية إلا أننا لم نلمس اهتمام كبير لهؤلاء الرحالة في

على جنبات السواقي و عيون المياه « على جنبات السواقي و عيون المياه أجنة بها أشجار التين و الجوز تجفف ثمارها و تحمل قصد البيع من أماكن على امتداد الساحل إلى غاية مدينة تنس»⁽⁸⁸⁾ ، وحتى دولمان De La Malle يؤكد على أن شجر الجوز يتواجد في منطقة جيغل.⁽⁸⁹⁾

و يضيف "شو" إلى تلك الأنواع أصناف أخرى من الثمار فيقول « أن أغلب الأشجار الأخرى والمثمرة التي نراها هنا موجودة في أوروبا، فشجرة اللوز تزهر في شهر جانفي وتثمر في بداية أفريل أما المشمش فيقطف في ماي، لكن (La sache) في حجم ثمرة الدراقن (Drugnon) يقطف في أوقات لاحقة، إذ يفضل على العادي لأن هذا الأخير قد يتسبب في الحمى والإسهال. في شهر جوان يوجد نوعان أو ثلاثة أنواع من الكرز والبرقوق لكنها بكميات قليلة ونوعيتها سيئة وتقطف في جويلية وأوت الي جانب التوت والإجاص والتفاح، ولكنها ليست بنفس اللذة التي نجدها في الأصناف المتوفرة في إنجلترا. كذلك نجد التين أو البكور الأسود أو الأبيض يقطف أيضا في شهر جوان لكن التين الكرماس (Kermès) التي تحفظ ناذرا ما تنضج قبل شهر أوت كما يوجد نوع آخر من التين الطويل والأسود والذي يترك أحيانا على الشجرة في الشتاء».⁽⁹⁰⁾

و يصف كذلك بعض الفواكه كالخوخ والدراقن، التي تنضج في منتصف جويلية، فيقول عنها « الدراقن أكبر حجما وأحسن من الدراقن عندنا، والخوخ رائحته طيبة وتزن عادة عشرة أنش (onces) أما الرمان فتتنضج حباته في شهر أوت. أما التين الشوكي (Poire piquant) يبدو أن أصله من أوروبا لأن السكان يطلقون عليه اسم كرماس النصارى»⁽⁹¹⁾.

الخاتمة

لقد كانت دراسات الرحالين الأجانب ”بايسونيل و دي فونتين وتوماس شو“ مصدرا مهما للمؤرخين و دليلا للجغرافيين العلميين لمعرفة مقومات الطبيعة و أحوال سكان الأيالة خلال القرن الثامن عشر الميلادي ، وزادت قيمتها العلمية لتناسق معلوماهم حول البيئة وأثرها في حياة الإنسان و تأمين مصادر غذائه.

وقد أضفى منهجهم العلمي في الدراسة الطبيعية و الزراعية موسوعة استندت عليها كل البحوث العلمية لخلو أخبارها عن الوصف و الإقتباس، و تقارب المادة الخبرية من حيث الزمان والمكان المحدد، ففتحت بذلك أفاق ثقافة الترحال و السفر و الاستطلاع لمعرفة المزيد من خيارات ربوع القطر الجزائري بعد نشر انتاجهم الفكري، الذي كان سبيلا في زيادة الأطماع الأوربية الإقتصادية و بعث ممهديات التفكير لتحقيق الغلبة العسكرية .

الحديث عن الثروة السمكية ماعدا المرجان وبعض الموانئ الخاصة بالتبادلات التجارية، إذ نجد وليام شالر قد تعرض إلى هذا الموضوع وصرح بوجود أنواع كثيرة من الأسماك المعروفة في البحر الأبيض المتوسط كما يوجد على السواحل الشرقية أجمل أنواع المرجان المعروف في العالم كما أن العالم بايسونيل قد تحدث عن مدينة القالة وقال عنها:

« تعتبر مركز صيد المرجان» وكون هذا العالم كما سبق وأن ذكرنا من بين دوافع رحلته هو البحث عن طبيعة المرجان (حيواني أم نباتي) الأمر الوحيد الذي جعله يطيل حديثه حول هذا الموضوع. (95)

إلا أنه في الحقيقة لم يكن هناك إقبال كبير من طرف المدن وخاصة الجهات الساحلية على استعمالات الأسماك وبالتالي لم يتشجع الصيادون على توسيع نشاطهم الذي ظل مقتصرًا على صيد كميات صغيرة من السمك ومقادير متواضعة من المرجان، لأن السكان كانوا يفضلون استهلاك لحوم الأغنام المتوفرة بكثرة على استهلاك الأسماك (96).



الهوامش:

القرن 10 هـ / 16 م إلى 13 هـ / 19 م ، دراسة اجتماعية
سياسية ، ماجستير في التاريخ الحديث ، جامعة قسنطينة،
1991م، ص2

5 صالح عباد ، المرجع السابق، ص5

6 محمد الصالح بن العنترى، فريدة منيسة في حال
دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها، م،
تح، تع، يحيى بوعزيز، دار هومة للطباعة والتوزيع، الجزائر،
2007 ، ص17

7 أحمد الشريف الزهار، مذكرات الحاج أحمد
الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر (1754-1830)
تحقيق أحمد توفيق المدني، ط2 ، الجزائر، الشركة الوطنية
للنشر و التوزيع، الجزائر، 1980، ص48،

8 Thomas Shaw , Voyage Dans
La Régence D'Alger, traduit de
l'anglais par J.Mac carthy, Tome1
paris, 1838,P.269

9 Peyssonel et Desfontaines,
voyages dans les régences de Tunis et
d'Alger, publiés par M. Dureau de la
malle, Tome1, paris, 1838, P. 269

10 André Noushi, Enquête sur
le niveau de vie des population ru-
rales constantinoises de la conquête
jusqu'à 1919, Paris, presse universi-
taire de France, 1961, P 15

11 محمد بن أبي ضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار
ملوك تونس و عهد الأمان، ج2 ، ط3، تونس، الدار

1 Léon Galibert , Histoire de
l'Algérie ancienne et moderne, paris,
1843, P46

2 جمال قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا (1619 -
1830م) المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987 -
ص173 - 196

راجع أيضا : ويليام شالر ، مذكرات قنصل أمريكا
في الجزائر(1816-1824م)، تعريب و تعليق
وتقديم اسماعيل العربي ، المؤسسة الوطنية للنشر و
التوزيع، الجزائر ، 1982م، ص140

3 بعد مقتل الداى محمد بن حسن أفندي على
يد رياس البحر سنة 1720م ، تولى الحكم الداى كردي
عبيدي الذي عرفت الأيالة في عهده تمردات و اضطرابات
بسبب الصعوبات المالية التي أثرت على جند الإنكشارية
، ما أدى إلى تملل الأوضاع في الذين حكموا بعده ،
لكن الداى بابا علي استطاع التحكم في دواوين الحكم
منذ 1759 إلى 1766 ، فبنى قاعدة مجال الرخاء و
القوة خلال حكم الداى محمد بن عثمان باشا من عام
1766 إلى 1805م، لمزيد من المعلومات أنظر:

صالح عباد ، الجزائر خلال العهد التركي (1514 -
1830م) دار هومه للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر،
2005 ، ص153-155

4 البايك كلمة تركية معناها اللواء أو المقاطعة
للمزيد من المعلومات ، أنظر :

جميلة معاشي، الأسر الحاكمة في بايلك الشرق، من

التونسية للنشر، 1977 ، ص ص 41-42

- 19 محمد الصالح بن العنتري، فريدة منسية في حال دخول قسنطينة و استيلاءهم على أوطانهم أو تاريخ قسنطينة، مراجعة و تحقيق يحي بوعزيز، عالم المعرفة للنشر و التوزيع، الجزائر، 2009، ص 17
- 20 صالح فركوس ، إحتلال و مقاومة، المكاتب العربية بمقاطعة قسنطينة (1844 - 1871م) رسالة دكتوراه الدولة في التاريخ المعاصر، جامعة قسنطينة، 2001، ص8
- 21 Thomas Shaw, Op. cit, P 108
- 22 فلة قشاعي، النظام الضريبي بالريف القسنطيني أواخر العهد العثماني (1771 - 1837)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 1990، ص3
- 23 فوزي هامل، الأمطار في الشرق الجزائري، مشروع مقدم لنيل شهادة مهندس دولة في الأوساط الفيزيائية ، جامعة قسنطينة، 1997م، ص6
- 24 المرجع نفسه، ص 6
- 25 محمد الهادي العروق، أطلس الجزائر والعالم، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، د.ت، ص 12
- 26 André Noushi, Opcit PP 5-9
- 27 فوزي هامل، المرجع السابق، ص7
- 28 Doris Bage, Recherche sur la topographie urbaine de cirta
- 12 Thomas Shaw, Voyage dans plusieurs provinces de la barbarie et du levant, paris levant ,paris,1810, P 167
- 13 Ernest Mercier ,Histoire De Constantine,J.Marle et F.Biron,1908, P P 244-245
- 14 Féraud Charles, Les Hrars Seigneurs des hanencha, in R.A 1874 ,PP 325-357
- 15 H. Aucapitaine et H. Ferman ,Notice Sur L'histoire et l'administration du beylik de titteri, in R.A 1865 ,PP 285-289
- 16 أوجين فايس، تاريخ بايات قسنطينة في العهد التركي(1792-1873م)،ترجمة صالح نور و تقديم الشيخ عبد الرحمن شيبان، منشورات قرطبة ، ط1، الجزائر، 2010، ص 26-27
- 17 Jeans Despois, Le Hodna, PUF, Paris, P 123
- 18 أحمد توفيق المدني، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، نقيب أشرف الجزائر(1168 - 1246 هـ/1754 - 1830م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974 م، ص 52

Dans La Regence D'alger ou de-
description géographique, physique,
philologique,ETC. Traduit de
l'anglais par J.MAC CARTHY,
Paris,1830,PP. 5-6

38 Denise Brahimi,Opcit , P139

39 Ibid , P139

40 Doris Bage, Opcit , p16""

41 هو الأب الإسباني فرنثيسكو خيمينيس ، جاء
إلى الجزائر تحت غطاء تحرير الأسرى وبناء مستشفى لهم
بوهران، ألف 3 مجلدات تخص رحلته إلى وهران، والجزائر
من [1717-1720]، للمزيد من المعلومات، أنظر:
ميكال دي إيلزا والهادي الوسلاقي، «ملاحظات أب
أسباني يزور وهران في عهد مصطفى بوشلاغم»، المجلة
التاريخية المغربية، ع12، تونس، 1978، ص ص.191
- 192

42 لوجي دوتاسي، فرنسي الأصل، عين كموثق
للعقود في القنصلية الفرنسية، سجل بالجزائر يوم
جانفي 1718 ، للمزيد من الإطلاع ، راجع:

Laugier de Tassy, Histoire
du royaume d'alger, édition
loysel, Paris,1992.

43 هارك أولوفس (Harck olufs) ولد
بجزيرة أمروم (Amrum) عام 1708 التي كانت
ملك للدانمارك، بدأ رحلته وهو في سن الثانية عشر،
تجول في عدة بلدان بحرية، وقد تم أسره وعمره 14 سنة
حيث عمل خزنارجيا لدى باي قسنطينة، بعد أن حرر
سنة 1735م وعاد إلى بلده، ألف كتاب عن رحلته

Constantine,D.E.A, université de
montpellier paul valery, UFR, 2004,
p15

29 Denise Brahimi,Opinions et
regards des européens sur le maghreb
aux XVII éme et XVIII éme siècle,
Alger, SNED, 1978, P 131

30 J.A. Peyssonnel ;De La malle
dureau pref, Relation d'un voyage
sur les cotes de barbarie,fait par ordre
du roi en 1724et 1725 , Paris,Librairie
de Gide ,1838,P2

31 Ibid,P2

32 Denise Brahimi,Opcit , P131

33 نقلا عن كتاب بايسونيل ودي فونتين

34 Denise Brahimi,Opcit , P153

35 René Louiche Desfontaine
De La Malle pref,Voyage dans la ré-
gence de Tunis et d'Alger,fragment
d'un voyage dans les régence de tu-
nis et d'alger fait de 1783à1786,
Paris,Libraire de Gide,1838, P1

36 Ibid,P2

37 Thomas Shaw, Voyage

47 Grigrievteh Kokovtsov ضابط

في البحرية الروسية، زار عنابة عام 1777م، صدرت رحلته في "سان بترسبورغ" عام 1787 بعنوان «أخبار موثوقة عن الجزائر» كان هدفه الاستعلام عن قوات البحرية الجزائرية الموالية للعثمانيين أنظر: بوباكير عبد العزيز، الرحلات الروسية إلى الجزائر، حوليات جامعة الجزائر، العدد 10، الجزائر 1977.

48 (L'abfe poiret) زار الجزائر سنة

1785، وقام بعدة أبحاث حول التاريخ الطبيعي لنوميديا سجل انطباعاته عن الجزائر في كتابه: "رحلة في بربريا"، أنظر:

Poiret (l'Abbé), voyage en barbarie, première partie, de la rochelle, Paris, 178

49 ناصر الدين سعيدوني والشيخ المهدي بوعبدلي،

المرجع السابق ص 57 - 85

50 Shaw. .Op.cit. P 12

51 Louiche Réne Desfontaines ,Opcit,P. 337

52 محمد الهادي لعروق، عبد العزيز فيلاي،

مدينة قسنطينة، دراسة التطور التاريخي والبيئة الطبيعية، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر 1984. ص 174

53 أندري نوشي و آخرون، الجزائر بين الماضي و

الحاضر، ترجمة رابح اسطنبولي و منصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص 193

54 Desfontaines, t2,Opcit, P260

55 حمدان عثمان خوجة، المصدر السابق، ص 71

تحت عنوان «مغامرات خاصة قسنطينية، تقدم مارتن راينهايمر، سنة 1747.

44 وهم: ج دولافاي (jean de la faye) ود. ماكار (Denis mackar) و أداريزاس (d'Arcisas) (augustine)، وهنري لوري (Henri le Roy) الذين قصدوا الجزائر لإفشاء الأسرى أنظر:

De La Faye Jean et autres, Relation en forme de journal de voyage pour la rédemption des captives aux royaumes de Maroc et d'Alger pendant les années

1723-1724 et 1725, Édition Bouchène, Paris, 2000

45 قام بعدة رحلات برية إلى دول أوروبية، وأراد أن (le sieur Tollot) السيد طولو يجرب سفر البحر فاعتتم الفرصة التي عرضت عليه لمرافقه الرحالة لاكوندامين إلى الجزائر التي وصل إليها يوم 12 جوان 1731، أنظر:

A Berbrugger, «un voyage de Paris à Alger en 1731 par Le sieur Tollot», R.A 11, 1867, P.417

46 جون أرنست هينشترائت، عالم ألماني من سكسونيا (1702-1757) من أكبر علماء الطب والطبيعة في القرن 18، بعد عودته من رحلته إلى شمال إفريقيا عين أستاذ في جامعة لايبزيغ (Leipzig)، أنظر:

Mounir Fendri, « trois voyageurs Allemands en Tunisie aux XVIIIe siècle », RHM, n°35-36, Tunis, 1984, p.72.

- 73 Shaw, Op.cit.P P14-16
- 74 فدلين شلوصر ، قسنطينة أيام أحمد باي(1832-1837م)ترجمة أبو العيد دودو، د ط، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1980، ص182
- 75 مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، ج3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964، ص 308
- 76 Shaw, Op.cit.P 13
- 77 Ibid, P P 13 - 14
- 78 Ibid , P.14
- 79 حمدان خوجة، المصدر السابق ص ص74-75
- 80 ناصر الدين سعيدوني ، والمهدي البوعبدلي، الجزائر التاريخ(العهد العثماني)، ج4، د ط ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 58
- 81 المرجع نفسه ، ص57
- 82 J.M.Venture De Paradis , Op.cit .P.24
- 83 فدلين شلوصر، المصدر السابق، ص182
- 84 سعيدوني وبوعبدلي المرجع السابق، ص45
- 85 Charles Féraud, Document pour server l'histoire de Philippeville ,in R.A 1876, P104
- 86 مرمول كرافجال ، إفريقيا، ج 3 ،المصدر السابق، ص 15
- 87 المصدر نفسه، ص 362
- 88 نفسه ،ص 381
- 89 - DeMalle,Op.cit.P.63
- 56 J.A. Peyssonnel, Op.cit, PP276-277
- 57 Ibid, P345
- 58 Jeans Michel Venture De Paradis , Alger au XVIIIe siècle, Edité par E. Fagnan, Alger, 1898, P 22.
- 59 الشيخ المهدي بوعبدلي، ناصر الدين سعيدوني، الجزائر في التاريخ، العهد العثماني، ص58
- 60 Shaw, Op.cit.P 12.
- 61 وليام سنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب و تعليق عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1980م، ص 143
- 62 Shaw, Op.cit.P13
- 63 Ibid,P13
- 64 Ibid, P.330
- 65 Desfontaines, Op.cit T2. P265-266.
- 66 ناصر الدين سعيدوني ، ورفقات جزائرية، ص504
- 67 Desfontaines .Op.cit. t2. P. 270
- 68 Jeans Michel Venture De Paradis, Op.cit P 18
- 69 مرمول كرافجال، إفريقيا، ج 3، ترجمة محمد حجي و أخرون، مكتبة المعارف للنشر و التوزيع ، الرباط، 1984، ص ص 8-9
- 70 المصدر نفسه ، ج 3، ص 12
- 71 نفسه ، ج 2 ، ص 364
- 72 وليام شالر، المصدر السابق ، ص 190

- 90 Shaw, Op.cit.PP.19-20
- 91 Ibid. P20
- 92 Ibid. P.21
- 93 - Shaw,Op.cit.P.21
- 94 وليام شالر، المرجع السابق، ص 32
- 95 Peyssonnel ,Op.cit.P.270
- 96 سعيدوني، بوعبدلي، المرجع السابق، ص 61